الجنـوب بعد عام: استعادة الفاعلية

الجنوب: المجلة الفلسطينية للدراسات التحررية (5-4)
القدس، دائرة سليمان الحلبي للدراسات الاستعمارية والتحرر المعرفي، خريف-صيف 2026
676 صفحة (بالعربية)

وليد دقة، صهر الوعي: ما قبله وما بعده (كتاب الجنوب 4)
القدس، دائرة سليمان الحلبي للدراسات الاستعمارية والتحرر المعرفي، 2026
156 صفحة (بالعربية)

صبحي الزبيدي وماسيميليانو مولونا وسماح بصول ومحمد الزنجلي،
السينما وفلسطين: الذاكرة، والتضامن، والمقاومة (كتاب الجنوب 5)
القدس، دائرة سليمان الحلبي للدراسات الاستعمارية والتحرر المعرفي، 2026
116 صفحة (بالعربية)

قراءة: خلود ناصر، فلسطين

الجنوب: المجلة الفلسطينية للدراسات التحررية عنوان ذو دلالة يختصر الكثير من القول حول أسئلة المجلة وغاياتها، فهو لا يعبِّر عن جنوب الجغرافيا بقدر ما تشير بوصلته إلى زاوية النظر وعدسته—إنه الجنوب المعرفي المؤسَّس على قاعدة التحرر، فكراً وممارسةً، والتعددية المعرفية للتجارب الإنسانية، والمشترك في التضادِّ مع الاستعمار والهيمنة والتبعية والاستلاب والتغريب واحتكار الحقيقة. انطلقت مجلة **الجنوب: المجلة الفلسطينية للدراسات التحررية** من القدس—قلب فلسطين منذ عام أو يزيد، تمَّ خلاله نشر خمسة أعداد وخمسة كتب مرافقة لها. وحيث تهدف هذه القراءة إلى تقديم مراجعة للعدد المزدوج (4-5) والكتابين المزامِلَين له، أرى أن وضعهما في السياق العام للمجلة بعد عام من انطلاقها، من خلال ربط اللاحق بالسابق مفاهيمياً، يمكن أن يوفِّر فهماً أوضح لمسار المجلة، إذ "الطريق تصنعه الخطى".

عن مسار الجنوب

يواجه إنتاج معرفة نقدية تحررية تحديات عدَّة في ظلِّ السيطرة الاستعمارية الاستيطانية والهيمنة الرأسمالية،

خاصةً في لحظة تاريخية فارقة من المواجهة بين المشروع الاستعماري الصهيوني والمشروع التحرري الفلسطيني. ومن عمق هذا الواقع الصعب، وبإمكانيات محدودة انطلقت **الجنوب** كمنصَّة لإنتاج المعرفة التحررية معلنةً انحيازها للأمل والعمل والإرادة، مذكِّرة بمقولة: إن لم يكن الآن فمتى؟ فالدعوة إلى بناء الفكر التحرري، كما يشير خالد عودة الله في مقال له في هذا العدد، "لا تعني تأجيل الاشتباك حال تحقق شروطه". وقد جاء تأسيس المجلة جرَّاء حاجة لملء فراغ، بالمعنى النوعي للكلمة، عبر توفير منصَّة تفتح مساحةً للتفكير في أطر معرفية ومناهج فكرية تتيح مواجهة سوء الحاضر وحقائقه المكرَّسة، في ظلِّ وفرة، بالمعنى الكمِّي للكلمة، في الإنتاج المعرفي عن فلسطين في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، التي ترتبط في جزء كبير منها بمؤسسات التمويل والحكم، الرسمية وغير الرسمية، المحلية والدولية، وتنتمي إليها فكرياً. وربما ترتبط في جزء آخر منها ببساطة بافتراض أن النماذج الغربية توفِّر أفضل الأدوات لإنتاج المعرفة القادرة على فهم الظواهر المختلفة وتفسيرها. وفي كلا الحالتين، يتمُّ إنتاج "معرفة تابعة" كما تشير مواد في العددين الرابع والخامس.

لا شكَّ أن بلورة فكرة **الجنوب** وتحويلها إلى واقع لم تكن عملية سهلة فكرياً وإجرائياً. وفي محاولة لتجاوز محدودية الموارد وقيود الواقع، ولضمان جودة المحتوى والاستمرارية والاستقلالية التحريرية، تعتمد المجلة على "عمل فردي تطوُّعي في إطار جماعي"، إدارةً وتحريراً وإنتاجاً. وكما تعرِّف المجلة نفسها، فإنها "لا تُشترى ولا تُباع"، وتنشر على موقع **باب الواد**، ما يوفِّر سهولة الوصول إليها. وقد يكون هذا تجسيداً حيّاً للفاعلية في مجال الأكاديميا يذكِّرنا بمفهوم "العونة" في الذاكرة الشعبية، لكنها "عونة معرفية" أكثر تركيباً، وإن كانت في خدمة القضية ذاتها—فلسطين.

ثمة ثلاث خطوات جعلت **الجنوب** تشقُّ طريقها بثبات في مسار واضح شكَّلت معاً ملامح الطريق الذي يحاول تجاوز قيود الحاضر، وجعل هذا التوجه النقدي والتحرري أكثر وضوحاً. تتكامل هذه الثلاثية في الافتتاحيات التي كتبها عبد الرحيم الشيخ على نحو منهجي يصف الواقع ويفهمه لأجل تغييره. حمل العدد الأول عنوان "الحقيقة والأوجه الغائبة" مشيراً إلى أهمية النبش فيما هو غائب أو مغيَّب في مجالات الحياة المتعددة—"سوسيولوجيا الغياب"، لجعل الذاكرة والفهم الأصيل للماضي مجالاً لإنتاج أدوات معرفية ومنهجية لفهم الحاضر والاشتباك مع قضاياه الراهنة كضرورات لابتكار آليات تفتح آفاقاً للمستقبل. أما العددان الثاني والثالث وكانا بعنوان "ألقوا الشباك ثانية"، فكُرِّست الافتتاحية فيهما للحثِّ على الاستمرار في جعل الذاكرة سبيلاً للانتقال من الأمل كحالة شعورية إلى الإلحاح في طلبه كممارسة شَرطية، وذلك لجعل التفكير ممكناً والبقاء متاحاً على الرغم من حلكة الأمكنة وفساد الأزمنة. ويطرح العددان الرابع والخامس مقاربة جنوبية لاستعادة فاعلية الفلسطيني، "ناظراً ومنظوراً إليه"، وذلك برفض حصره في دور الضحية المثالية للاستعمار، بصوره وأشكاله المتعددة—الضحية التي لا تكفُّ عن التباكي وندب الحظِّ، بل تنبش في ذاتها الفاعلة المتبصِّرة لتبتكر أدواتها المعرفية والعملية للاستمرار والتغيير. فالضحية فاعلة على أوجه متعدِّدة كما يراها فرانز فانون، وهي دائماً "قبل السماء الأخيرة"، كما يفيد عنوان العدد المزدوج. هكذا، تُقارِب مجلة **الجنوب** فلسطين لتجاوز هيمنة النماذج الغربية ومركزية تفسيراتها وأطروحاتها، وذلك لتحريرها من "السجن المعرفي" الذي يجري حصرها فيه.

العددان الرابع والخامس: نظرة عامة

يشكِّل العدد المزدوج (4-5، ربيع صيف 2026) من المجلة والذي يحمل عنوان "قبل السماء الأخيرة"، عملاً واسعاً ومتنوعاً يضمُّ عدداً كبيراً من النصوص السياسية والفكرية والاجتماعية والثقافية، ما يعكس جهداً كبيراً، إذ يمكن للقارئ ملاحظة خطٍّ ناظمٍ خلال انتقاله بين موضوعات المجلة التي تتقاطع فيها المسارات الفكرية حول السيطرة الاستعمارية الإحلالية وتتكامل معرفياً في إطار التفكير في فلسطين من منظور تحرري. وبين قوة المحو وقوة الوجود، تتحرَّك معظم الموضوعات من الحقول المختلفة بين الأسئلة الأساسية التي سبق ذكرها: سؤال الحقيقة الغائبة، وسؤال الأمل، وسؤال الفاعلية قبل السماء الأخيرة، بدرجات مختلفة. ونظراً لضخامة العدديين وكتابَي الجنوب المزاملين لهما، تقدم هذه القراءة مراجعة عامة لا إحاطة تفصيلية.

في باب "مقال"، تشترك المداخلات الثمانية في تناولها النقدي لأزمات الواقع السياسي واختزال المشروع التحرري في مشاريع تسوية سياسية منفصلة عن بنية الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، وذلك من خلال طرحها موضوعات تشمل: أزمة التمثيل السياسي الفلسطيني باعتبارها أزمة بنيوية وإعادة تأسيس الفعل لباسم الزبيدي؛ وتجزئة الشعب الفلسطيني واستعادة دور الداخل المحتل في بناء المشروع الوطني الفلسطيني لعوض عبد الفتاح؛ والعجز الرسمي العربي المرتبط بوهم الأمل الزائف بانتظار الخلاص القادم من الغرب في القدس مثالاً لمحمد هلسة؛ وإعادة الاعتبار للنضال التحرري والوحدة في مواجهة مشروع التسوية السياسية لوسام رفيدي؛ ومشاريع تقنين الوصاية على غزة لشعوان جبارين؛ وأزمة ترهُّل الحركة الطلابية في الجامعات الفلسطينية لمؤيد طنينة؛ وحول الأسر تناقش أماني سراحنة مسألة فقدان اللغة وعجزها عن تمثيل ما يجري واحتوائه في بنية العنف الاستعماري؛ ويعرض رشاد توام الانتهاكات بحق الأسرى الفلسطينيين في السجون "الإسرائيلية" في دعوة لمقاطعة محاكمهم. هذا، وتشترك المقالات أيضاً في تقديم تحليلها لهذه الموضوعات كأداة لفهم الواقع كضرورة أولى لتغييره من خلال العمل على جبهة الوعي ومأسسة الفعل الاجتماعي والسياسي وتنظيمه وصولاً إلى استعادة بناء المشروع الوطني الجامع والممثل لفلسطين والفلسطينيين.

وفي المجال السياسي أيضاً (ومع تقاطعات واضحة في فهم الحياة اليومية) يضمُّ العدد أربع سجالات وازنة تشمل: في معنى التفكير مع علي شريعتي في زمن الحرب على المستقبل لخالد عودة الله؛ ومن أجل ميثاق ثوري للتحرر الشامل: نقد الكمبرادورية المعرفية ورفض الاستسلام كاستراتيجية نضالية لليوم التالي، لكل من سيف دعنا وغسان أبو ستة وصبيح صبيح ووسام الفقعاوي وصلاح الحموري؛ والغضب من أجل فلسطين: بين أن تكون سوداء أمريكية وتصبح فلسطينية لأميرة سلمي؛ وفلسطين بوصفها صراعاً على الزمن: المخيم والاستعمار الاستيطاني وحدود الاكتمال لناصر أبو رحمة وعبد الجواد عمر. وهنا تنبغي الإشارة إلى إسهام هذه المقالات في الردِّ، بالكتابة، على مفهوم "حرب الأفكار" الذي يناقشه خالد عودة الله في مقاله، إذ تعمل حرب الأفكار التي ترافق الحرب العسكرية على إبقاء حالة التبعية والخضوع من خلال "مجموعة من العمليات الإدراكية والنفسية المنظَّمة التي تشنُّها جهة ما للتأثير على الوعي الجمعي عبر رزمة من العمليات المعلوماتية كوسائل الإعلام ومواقع

التواصل الاجتماعي". تبدو هذه العمليات ظاهرياً كتعبير حرٍّ عن الآراء، ما يجعل اختراقها للوعي أسهل، بينما هي في حقيقة الأمر عمليات منظَّمة بعيدة عن العشوائية تستهدف شلَّ القدرة على التفكير وقبول الأفكار الاستعمارية والمهيمنة وتطبيعها. وفي هذا السياق، يصبح التفكير النقدي والوعي فعلاً تحررياً.

في إطار موضعة فلسطين في قلب الجنوب، وتجاوز حدود الجغرافيا العربية والفلسطينية، أفردت المجلة باب "حوارية المثقف الجنوبي: المسألة والمسؤولية" لطرح نقاشات وسجالات نظرية من مثقَّفي الجنوب العالمي والتفاعل مع تجاربهم التاريخية ومقولاتهم الفكرية في مواجهة الاستعمار وأشكال السيطرة والهيمنة. يضمُّ هذا العدد الجزء الثاني من هذه السلسة في حوار مع أربعة مفكرين مناصرين لقضية فلسطين وقضايا الحرية والعدالة على امتداد العالم. في سياق نزع سلاح المقاومة، تطرح مساهمة إسطفان شيحا من لبنان موضوع "الأشياء اللاصقة والجيدة"، المادية والرمزية، التي تحيا في الذات الفلسطينية فتديم التماسك الاجتماعي وتربط الفلسطينيين بأرضهم وهويتهم وتنظِّمهم ذاتياً واجتماعياً ووطنياً ونفسياً. تستعصي هذه الأشياء على الإبادة من قبل الأنظمة الاستعمارية، مثل شجرة الزيتون ومفتاح البيت القديم والبندقية—"الأشياء" التي تتركز حولها أطروحة الدراسة. فيما تتناول ساندي بلاسيدو من آييتي أشكال التضامن مع فلسطين بعد 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 التي شكَّلت لحظة فارقة في إدراك الشعوب المقهورة، مسلِّطة الضوء على الروابط التاريخية والمادية والسياسية التي توحِّد نضالات الشعوب ضدَّ الاستعمار والإمبريالية والرأسمالية، وذلك لتفكيك الخبرات المشتركة والتأمُّل في معاني التضامن. وفي سياق مشابه، يقدِّم سليم فالي من جنوب أفريقيا تحليلاً معمَّقاً لأوجه التقاطع والروابط التاريخية بين معاناة شعبي فلسطين وجنوب أفريقيا من الأنظمة الاستعمارية الإمبريالية ونضالهما التحرري في مواجهتها، وذلك، بطبيعة الحال، دون إغفال اختلاف النماذج الاستعمارية. وتناقش آثر زيا من كشمير كيف أصبح النضال الفلسطيني نضالاً ريادياً ومنارة للمقاومة العادلة، بحيث أصبح الكشميريون يكنُّون "تضامناً وجدانياً" مع الفلسطينيين. هذا، وتتطرَّق زيا إلى الجذور الاستعمارية الإمبريالية في كلٍّ من فلسطين وكشمير التي تجعل هذا التلاقي العاطفي عاملاً محورياً في الاصطفاف والتضامن مع الحق الفلسطيني، بل ويستمدُّ منه حافزاً لحركة المقاومة الكشميرية، بحيث أصبح تعبير "الانتفاضة" شائعاً ومستخدماً في كشمير بلفظه العربي. كما ويضمُّ العدد نصاً مترجماً بعنوان "أرخبيل الانتظار" لشيفانغي مريم راج من الهند، ترجمه سمير صباغ، بمثابة ترحال في صور المقاومة الفلسطينية كما يراها أحرار العالم من خارج فلسطين.

وفي باب "إضاءة"، يضمُّ العدد المزدوج أربع مساهمات نظرية جديرة بالقراءة، وهي: صناعة الوحش الاستعماري، البرودة بوصفها تقنية إبادة حديثة لرامي سلامة؛ والمنهجية الحسِّية في/ عن عنف إعادة الإعمار لياسمين قعدان؛ وأدب الاشتباك: تخريب ما ينبغي تخريبه لباسم خندقجي؛ وشبيبة التلال: الطليعة التحررية واستحقاق تحرير الجيش لياسر منَّاع. وفي باب "دراسة"، تربط الأطروحات المجال الاجتماعي بالمجال السياسي من خلال تناولها قضايا تتعلَّق بالسرد الرقمي والتعليم والحراك الاجتماعي والعمارة كمساحات لإنتاج الصمود والوعي والتنظيم الاجتماعي. يضمُّ هذا الباب خمس دراسات: ساردو قصص غزة الرقميون: الرواية الشعبية في مواجهة الإبادة

الجماعية لصالح مشارقة؛ وعمارة المقاومة الفلسطينية في مواجهة الهندسة الاستعمارية: نمط عمارة الممكن والمتاح نموذجاً لزياد حميدان؛ وفلسطين الحدثية في مواجهة فلسطين الحداثية لعنان حمد الله؛ والمخيال الاجتماعي للطبقة الوسطى في القدس: بين تحديات المنهاج التربوي العاري والحراك الاجتماعي لبلال سلامة وقصي عباس؛ وبين التيمز والتعليم الشعبي: دراسة حالة لفاعلية التعلُّم عن بعد في قطاع غزة لطلبة المرحلة الثانوية خلال الإبادة وسبل التحرير التربوي لسالي شطارة وبراء كعبي وأحمد الجنازرة.

ضمن باب "ريبورتاج" يعرض محمود بركة نصوصاً تسرد تفاصيل الحياة اليومية في غزة تحت الإبادة، شارك فيها كتَّاب غزة: إبراهيم عصام، وشجاع الصفدي، وعبد الوهاب حمد، وشادي الكفارنة، ويافا أبو عكر، وفداء زياد، سامية الغصين، ونَجيًّا محمود، وفاطمة قويدر، ونعمة حسن، وعاطف حسنين، ورمضان بركة. وفي باب "شهادة" سبع شهادات وتجارب حية عن فلسطين ولبنان وأيرلندا وجنوب أفريقيا وتونس، لكل من: يسرى العكلوك، وهدى فخر الدين، والعزيز عاطف، وسارة كلانسي، وفاطمة هندريك، وزوكيسوا فانر، وعلي الكنيس، وقد رافقها لوحتان للفنان الفلسطيني العزيز عاطف.

تخصِّص المجلة باباً للإنتاج الثقافي باعتباره شهادة على الواقع تتجاوز الخطاب السياسي المباشر، ومساحة لحماية الهوية ومقاومة المحو، ووسيلة لحفظ المكان والذاكرة وتجربة الفقد واللجوء والمنفى والعودة. يشمل هذا الباب: فصولاً من رواية **يسيرون ويسيرون** لجمال ضاهر؛ وقصة الكندة لطارق عسراوي؛ و"إعادة" لقصة **النمور في اليوم العاشر** لزكريا تامر من سورية؛ بالإضافة إلى سبع مساهمات شعرية، من لبنان وفلسطين وسورية، لكل من الشعراء: محمد ناصر الدين، وعبد الله عيسى، وأنس العيلة، ورولا سرحان، وقصي اللبدي، والاء القطراوي، وفاطما خضر. كما يضمُّ هذا الباب مقالتين نقديتين في السينما والمسرح لكل من رنا عناني والمنذر الدمني. ويتناول عبدالرحيم الشيخ التجربة الفنية للفنان الفلسطيني هاني زعرب، الذي استضافت المجلة أعماله في معرضها، من منظور معرفي-جمالي في مقالة بعنوان "عَلَم الآن، عالَم الآن." وتساهم بيان حداد بـ"بطاقة" حول تجربة الخطَّاط الفلسطيني ساهر كعبي وتتبَّع رحلته الفنية "التي تظهر الخط العربي كممارسة جمالية وفعل مقاوم". أما باب "وثيقة"، فقد اشتمل على مقالين حول الفن والثورة لكمال بلاطة بعنوان "الفن والثورة" (1971)، وإسماعيل شموط بعنوان "الفن التشكيلي في معركة التحرير" (1972).

وفي باب "ذاكرة"، وحتى لا ننسى، ساهم أحمد مفيد بملصق للراحل حمزة العقرباوي "أيقونة ذاكرة فلسطين الشعبية"، وشارك عوني فارس بدراسة حول "أحرار وقيود: طلائع الأسرى الفلسطينيين في سجون الإنجليز (1917-1919)". وبعنوان "الحلقة والحقل الاعتقالي الفلسطيني: إعادة إنتاج الوعي الفلسطيني تحت القيد" قدَّم شادي الشرفا مقاربته لمفهوم "الحلقة" كنمط من أنماط إنتاج المعرفة في السجون في باب "مفهوم". وفي إطار التنوع الواسع للموضوعات، تمَّ تخصيص باب بعنوان "تقانة" قدم فيه محمد مشارقة مساهمة، بعنوان: "لعبة التفكير في تحضير عفريت الذكاء الصناعي"، يصف فيها كيف يتمُّ تدريب الذكاء الصناعي ليكون آلة حرب، وكيف تمَّ توظيفه

في الحرب على غزة. وفي "مكتبة" العدد ثلاث مراجعات لكتب بالإنجليزية والعبرية والعربية، أنجزها على التوالي: رنا بركات، وسليمان التيهي، وأنمار رفيدي، بالإضافة إلى مراجعة مهمة لعددي الجنوب (2-3) كتبها أستاذ علم الاجتماع التونسي منير السعيداني. وقد صدر مع هذا العدد المزدوج كتاب الجنوب (4) وكتاب الجنوب (5).

كتاب الجنوب 4—صهر الوعي: ما قبله وما بعده

لم يكن وليد دقة باحثاً أو أكاديمياً قرَّر اختيار السجن كميدان بحثي لدراسته من مسافة آمنة، بل كان هو نفسه موضوع الدراسة ومختبر العنف الذي يدرسه. ولذلك، تشكِّل دراسته مرآة لواقع معيش في السجون "الإسرائيلية"، حيث قرَّرت ضحية الاستعمار الصهيوني الاشتباك معرفياً مع هذا الواقع بدلاً من الانفصال عنه، عبر تقديم درس إمبريقي متفرِّد في تحرير المعرفة. وهو ما يمنح الدراسة مصداقية يندر لأي دراسة أكاديمية من خارج التجربة أن تحقِّقها. يضمُّ الكتاب ثلاثة نصوص كتبها وليد دقة في مراحل مختلفة من حياته داخل السجن امتدت ثمانية وثلاثين عاماً (تتلوها الآن عقوبة اعتقال لجثمانه الطاهر بعد استشهاده في 7 نيسان 2024). والنصوص هي: "صهر الوعي أو في إعادة تعريف التعذيب" (2009)، و"ما قبل صهر الوعي" (2010)، و"ما بعد صهر الوعي: ملهى الإغراء والإغواء" (2023). ويقدِّم عبد الرحيم الشيخ استهلالاً وافياً للكتاب متضمناً ثلاثة تنويهات مهمَّة ويتعرَّض لمسيرة الأسير الشهيد دقة.

يطرح الجزء الأول التصوُّرات المختلفة للحلول السياسية لقضية فلسطين وأدوات الكفاح في ظلِّ المتغيرات والمواقف منها، ويدعو دقة، بعد تفصيل القول فيها، إلى ضرورة إجراء مراجعة للمشروع التحرري، إذ لا يمكن للفلسطيني أن يتمسك بالأدوات ذاتها في ظل المتغيرات المستمرة والمتسارعة.

ويتحوَّل الجزء الثاني إلى دراسة السجون "الإسرائيلية" باعتبارها "مختبراً" لآليات الرقابة والإخضاع والسيطرة والهندسة الاجتماعية. في هذا الجزء، تتبلور أطروحة دقة المركزية حول صهر الوعي التي توسع إدراكنا لمعاني التعذيب في إطار السيطرة الحديثة داخل السجون "الإسرائيلية"، حيث تنتقل من السيطرة المباشرة على الجسد من خلال القمع والتعذيب إلى السيطرة على الروح والعقل من خلال الهندسة الاجتماعية. فالسيطرة على الزمان والمكان يمكنها إحداث تغيرات جوهرية في المبادئ والقيم والروابط الجماعية التي يقوم عليها الوعي الفلسطيني، فتؤدِّي، بالتالي، إلى صهره وإعادة تشكيله وفق الرؤية التي يريدها المستعمِر. ولتأطير دراسته نظرياً، يستعير دقة مفهوم "البانوبتيكون" حيث النظام الانضباطي لامركزي ولامرئي، ويعمل من خلال المراقبة الذاتية الداخلية المستبطنة، ويستعين بنظريات علم النفس الاجتماعي لفهم عمليات الضبط الخارجية. يجادل دقة بأن صهر الوعي هو عملية ممنهجة ومنظَّمة ومخطَّط لها ومتعدِّدة الأدوات الحسِّية والمعنوية التي تستهدف الأسير بكلِّيته: جسداً وعقلاً وروحاً، رافضاً اعتبارها سلوكاً عشوائياً أو استعراضاً أمنياً انفعالياً. ولأن صهر الوعي عملية مدروسة، فإن نظام السجن يعدِّل أو يغيِّر أدواته في ضوء المتغيِّرات السياسية وتغيُّر أشكال المقاومة. ومن واقع تجربته

السجنية، يحلِّل دقة آليات هذا الانتقال وأدواته بشكل فريد، وعلى نحو لا يمكن لتقارير حقوق الإنسان أن تتمكَّن من رصدها. فعلى سبيل المثال، يعتبر دقة الوفرة المادية، لا الندرة والحرمان، إحدى هذه الآليات التي تسعى إلى الفردنة، حيث يتيح التحكُّم بالحاجات إلى خلخلة علاقة الفرد بالجماعة. وكلَّما اتسعت دائرة الحاجات الفردية وازداد الاعتماد عليها وأصبح الحفاظ عليها امتيازاً، صار التحكُّم بالأسرى أكثر سهولة من خلال تحويلهم إلى أجساد مهزومة من الداخل وتحطيم كلِّ ما من شأنه أن يخلق إرادة جماعية، وتحويلهم إلى أجساد مهزومة بشكل فردي. هنا تظهر المفارقة، حيث الحرمان قد يوحِّد الجماعة في مواجهة السجان، بينما يمكن لإدارة الوفرة أن تعيد الفرد إلى حساباته الخاصة وتزيد قابلية البحث عن الخلاص الفردي. ينتقل دقة من دراسة صهر الوعي في السجن كعيِّنة وكمساحة مغلقة تتيح رؤية آلياته بوضوح، إلى مقارنة ذلك كلِّه بما يجري في الفضاء الفلسطيني الأوسع الموجود خارج أسوار السجن، والذي تحوَّل بفعل السيطرة الاستعمارية إلى معازل جغرافية، حيث يجادل بأن ما يطبَّق داخل السجون ينقل إلى خارجها. لا يستخدم دقَّة هنا الاستعارة أو التشبيه أو التنبؤ، بل يشير إلى ما يمكن معاينته فعلياً على الأرض. وبهذا، تتوقَّف فكرة "المختبر" عن كونها مجرَّد فرضية لتصبح حقيقة واقعة، إذ يتناظر توزيع الأسرى وفق انتمائهم الجغرافي داخل السجون مع التقسيم الجغرافي للمدن والقرى الفلسطينية الذي تم فرضه خارج أسوار السجن.

يوسِّع دقة أطروحته في الجزء الثالث ليحلِّل الحقبة المتأخرة من وجوده في السجن بعد العام 2010. فإذا كانت السيطرة الحديثة قد استخدمت المراقبة وإدارة الحاجات والتفتيت والهندسة الاجتماعية بمختلف أدواتها، فإن التكنولوجيا والشبكات وعالم الصورة والمشاهدة والاستهلاك توفِّر لها مجالاً آخر للسيطرة من خلال "الإغراء والإغواء"—أي ما بعد صهر الوعي. هنا يتمُّ استخدام هذه الوسائط بشكل ممنهج لاستكمال صهر الوعي وإعادة تشكيل قيم الأسير وأفكاره وأولوياته، فيما يبدو اختياراً حراً، بحيث تتحَّول مع الزمن إلى هويَّات ومصالح ضيقة تنافس الهوية الجماعية، وتنتج أنماطاً جديدة من الحياة يسهل السيطرة عليها. وبهذا، تصبح المسافة بين الاختيار الحر والاختيار أو السلوك الموجَّه أقل وضوحاً، فتقلُّ الحاجة إلى السيطرة من خلال المواجهة المباشرة. وإذا تجاوزنا دراسة السجن الإثنوغرافية، فيمكن اختصار إحدى غايات الكتاب المهمة في "اليقين". فالصهر، كما يعرِّفه، لا يتعلَّق بالألم أو حتى بكسر إرادة الإنسان، بل بإذابة القدرة على المعرفة، وبسلب وعي كان راسخاً بما يكفي ليحمل شكلاً وسياسةً ويصنع ذاتاً، وتحويله إلى وعيٍ مبهم بلا شكل، مهزوم وعاجز عن الجزم بما يحدث له ولماذا. ولعل هذا ما يجعل إصرار دقة على إطلاق مفهوم "صهر الوعي" لأكثر من حاجة بلاغية. التسمية تسبق الفعل، فما لا تستطيع تسميته أو فهمه لا يمكنك مواجهته بوعي. فإذا كانت طريقة المُحتل هي إذابة الإنسان وتحويله إلى شيء قابل لإعادة التشكيل، فإن طريقة دقة هي إعادة بناء ذاته من خلال الفهم، ومعرفة حالته بدقة متناهية بحيث لا يمكن إعادة تشكيلها دون إرادته. ومن هنا، تصبح مقاومة صهر الوعي دفاعاً عن القدرة على التفكير، كما تصبح حماية الجماعة وقيمها وقدرتها على التنظيم جزءاً من المقاومة، لا مجرَّد تحسين شروط الحياة (في السجن أو المعازل). اليقين، لا الصمود فقط، هو سلاحه. فالكتابة، بالنسبة له، ليست آلية للتأقلم أو منفذاً من الجدران، بل هي الممارسة الفعلية لهذا التطلُّع: إنه لا يكتب لينجو من التفتت، بل يكتب ليتدرب على نقيضه.

تتيح قراءة الأجزاء الثلاثة معاً لكتاب دقة إدراك تماسك الأفكار وبناء تصوُّر متكامل للعلاقة بين السلطة والوعي من خلال مسارها التصاعدي: من القمع المباشر، إلى هندسة البيئة الاجتماعية اليومية التي يتحرَّك داخلها الأسرى، إلى مشاركة المستهدَفين في السيطرة عليهم من خلال المتعة والرغبة. إن التأطير الأصيل هو ما يجعل "صهر الوعي" أكثر من مجرَّد مذكرات سجن مُغلَّفة بنظرية، بل هو بأكثر من ذلك مقولة مفادها أن الأرض الوحيدة التي يمكن للوعي المُستعمَر أن يرتكز عليها، والتي لا يستطيع المُستعمِر محوها ببساطة، هي الأرض التي رسم حدودها وسمَّاها بنفسه، وهو ما ينبغي لأي قراءة جادة للكتاب أن تتوقَّف عندها. فما هو على المحلِّ فعلياً هو الشكل الذي يسمح للناس بالتفكير من خلاله.

كتاب الجنوب 5—السينما وفلسطين: الذاكرة والتضامن والمقاومة

كتاب **السينما وفلسطين: الذاكرة، والتضامن، والمقاومة**، هو عمل جماعي يشمل أربع دراسات نقدية تستند إلى قراءات متنوِّعة في أرشيف السينما المتعلِّقة بفلسطين. هذه الدراسات في مجموعها تترابط فكرياً وتتراكم معرفياً لتنتج مقولة مفادها أن السينما ليست محايدة بل يمكنها أن تحفظ ما هو غائب أو مهدَّد بالمحو، وتكشف ما يتمُّ إخفاؤه، وتربط التجارب المحلية بفضاءات أوسع.

يفتتح صبحي الزبيدي الكتاب بدراسة، بعنوان: "ذاكرة المكان المنكوب: سينما تورا بورا في فلسطين"، تتكوَّن من قسمين: "سينما تورا بورا"، ومقدمة تطرح إطاراً أوسع للنظر إلى السينما الفلسطينية من خلال العلاقة بين الصورة والمكان والذاكرة. يقدِّم الزبيدي مساهمة لافتة من خلال رفضه فصل الصورة السينمائية عن الجغرافيا والتاريخ الذي تصوِّره. فعندما يتعرَّض المكان للمحو والإبادة الاستعمارية والتدمير التاريخي وتغيير الاسم والهوية، تمنح السينما الذاكرة شكلاً بصرياً، وتصبح طريقة لإثبات الوجود وحفظ العلاقة بالمكان. لا يُختزل الأرشيف في كونه مخزناً لأدلة على الماضي، بل يدفعنا إلى التفكير في سؤال أسبق، مفاده: لماذا نضطرُّ أصلاً إلى إعادة بناء بعض أشكال الدليل؟ فالأرشيف السينمائي الفلسطيني موجود ليس فقط لأن الأفلام أشياء هشَّة وقابلة للتلف، بل لأن التاريخ الفلسطيني نفسه تعرَّض مراراً للتجزئة على مستوى الأرض والمؤسسات والحركة والذاكرة. ولهذا، تكتسب السينما أهمية تتجاوز قيمة الفيلم نفسه. وفي هذا السياق، يمكن لشريط أن يصبح سجلّاً لمشهد جغرافي، ويمكن لصورة أن تصبح دليلاً على عالم اجتماعي، ويمكن لفيلم أن يحفظ أشكالاً من الحياة الفلسطينية لم يعد لها حضور مادي يمكن رؤيته والتفاعل معه... لكن الأرشيف لا ينظر إلى الوراء بهدف التوثيق فقط، بل يحاول إعادة بناء الصلة بين شعب وتواريخ وأمكنة وأزمنة جرى فصله عنها. السينما من هذا المنظور ليست محايدة بل فعل تحرر.

أما دراسة سماح بصول "السينما الرحَّالة في إبَّان الحكم العسكري في فلسطين 1948-1966: بين الإرشاد المُعلن والابتزاز المُبطَّن"، فتجعل المشكلة نفسها مرئية، لكن من الجانب المقابل. فدراستها "للسينما الرحَّالة" كوسيلة عرض متنقِّلة ومجَّانية كانت تجوب القرى والمدن الفلسطينية في ظل الحكم الاستعماري العسكري الصهيوني الذي سيطر على الأرض والناس في الفترة 1948-1966 مهمَّة تحديداً لأنها تعقد الثنائية بين السينما بوصفها

أداة للتحرر والسينما كأداة استعمارية. تكشف المادة الأرشيفية التي درستها بصول عن أن عرض الأفلام لم يكن نشاطاً ثقافياً حرّاً ومنفصلاً عن البنية الاستعمارية كما ادَّعت دائرة الإرشاد والتنوير التابعة للحكم العسكري، بل كانت تعمل من داخل منظومته للسيطرة السياسية والاجتماعية والثقافية على المجتمع. ولذلك، لا تكمن أهمية جهاز العرض المتنقل في ما كان يظهر على الشاشة فحسب، بل في السياسة الأوسع للضبط والمراقبة والتأثير وإدارة السكان التي كان ينشئها حوله: مَن نظَّم العروض؟ وأين أقيمت؟ وكيف تمَّت مراقبة الجمهور؟ وكيف تداخل النشاط الثقافي مع إدارة الفلسطينيين؟ بهذا المفهوم، تصبح السينما جزءاً من بنية السيطرة نفسها وعلاقات القوة المحيطة بها، لا مجرَّد محتوى يمكن الحكم عليه من خلال مضمون الفيلم.

هذا، وتدفع دراسة ماسيميليانو مولونا "السينما كائتلاف: نضالات كوكبية، وسينما كوكبية"، التي ترجمتها عن الإنجليزية رنا عناني، بالنقاش خطوة أخرى إلى الأمام، حين تطرح تحرير السينما من النخبوية وعزلتها، وتدعو إلى وضعها ضمن علاقات عابرة للحدود، أو أفق "كوكبي" كما يسميه مولونا، بحيث تكون جزءاً من بنية تضامن عالمية عملية. يكتسب هذا الطرح أهمية خاصة في زمن إبادة غزة لدوره الممكن في تحويل التعاطف إلى تضامن. وفي سياق السينما العابرة للحدود أيضاً، تنتقل دراسة محمد الزنجلي "تمثيل المقاومة في الخطاب السينمائي المغربي: فيلم 'المطمورة' لحسن بنجلُّون أنموذجاً" إلى تخييل المقاومة في الخطاب السينمائي المغربي، مجادلةً بأن اللغة السينمائية بما تمتلكه من وسائل يمكنها من ترسيخ الخطابات المقاومة أو تغييرها، والدخول في تجربة تاريخية محلية في حوار مع تجارب أخرى، ما يعني ممارسات سينمائية وسياسية مختلفة تماماً.

وفي المحصلة، ثمة أربعة مسارات مترابطة تقول على السينما وفلسطين في هذا الكتاب: في دراسة الزبيدي تؤدِّي السينما وظيفة الذاكرة وإثبات الوجود في مواجهة المحو؛ وفي دراسة بصول تظهر السينما كيف يمكن أن تكون جزءاً من منظومة استعمارية بوصفها أداة يمكن توظيفها في التوجيه والضبط؛ وعند مولونا يمكن للسينما أن تصبح وسيلة لبناء التضامن والنضال العابر للحدود؛ وفي دراسة الزنجلي، تستطيع السينما تمثيل المقاومة وإدخال التجارب المحلية في حوار أوسع حول الاستعمار والتحرر. ولعل هذا هو ما يجعل المفردات الثلاثة في عنوان الكتاب (الذاكرة، والتضامن، والمقاومة) أكثر وضوحاً مما تبدو عليه في البداية. فالذاكرة ليست مجرَّد استرجاع سلبيٍّ للماضي، والتضامن ليس مجرَّد تعاطف، والمقاومة ليست بالضرورة صورة للمواجهة البطولية... بل إن كل واحدة منها تعتمد على الشروط المادية التي يلتقي الناس من خلالها بعضهم بالبعض الآخر ويفهمون تاريخهم. وبذلك، لا يقدِّم الكتاب السينما بوصفها سلاحاً بسيطاً في مواجهة النسيان، ولا يختزلها في تعريفات مبهمة، بل يقدِّمها بوصفها وسيلة للحفاظ على العلاقات بين الناس والأماكن والتواريخ بعد أن تكون الشروط السياسية التي كانت تجمعها قد تعرَّضت للكسر بالعنف. ولهذا تتجاوز أهمية الكتاب مجال الدراسات السينمائية، ذلك أنه، في جوهره، يسأل كيف يستطيع شعب أن يظلَّ قادراً على التعرُّف على نفسه عبر شظايا تاريخ جرى تفكيكه مراراً، حتى يبدو في بعض اللحظات وكأنه تفتَّت إلى حد يستحيل معه الترميم.

الجنوب وكتاب الجنوب

وقبل الذهاب إلى خلاصة هذه القراءة، لا بدَّ من الإشارة إلى صلة غير متوقَّعة بين كتابَي الجنوب المرافقين للعدد المزدوج. ففي الكتابين، لا تكمن المسألة في العنف نفسه فحسب، بل في محاولة تحديد الشروط التي يستطيع الفلسطيني من خلالها أن يفهم وجوده. وفي الحالتين، تصبح المسألة محاولة لإنتاج نوع من الاستمرارية في مواجهة سلطة تقوم على إحداث القطيعة. لكن أشكال الاستمرارية مختلفة، إذ: ينشغل دقة في كتاب **صهر الوعي** بإعادة بناء المستقبل من داخل نظام صُمِّم لجعل الحياة الفلسطينية نفسها منفصلة عن سياقها، عبر: فصل الأسير عن جسده، وعن عائلته، وعن زمنه، وفي النهاية عن قدرته على تخيُّل ما سيأتي بعد السجن. أما كتاب **السينما وفلسطين** فيهتمُّ بما يمكن تسميته النظير الثقافي والتاريخي لهذه المشكلة. فإذا كان من الممكن فصل شعب عن أمكنته وأرشيفه وصوره وتاريخه، يصبح السؤال هو: كيف يمكن لهذه الشظايا، على الرغم من ذلك، أن تستعيد قدرتها على التخاطب فيما بينها؟ هنا تصبح السينما إحدى الإجابات الممكنة، ليس لأنها تعيد ما دمِّر، بل لأنها تستطيع أن تنشئ علاقة بين الأجزاء المتناثرة. وهذا الفرق مهم، بلا شك: فالأرشيف لا يهزم المحو عبر التظاهر بأن المحو لم يحدث، بل يقاومه عبر رفض أن يصبح التدمير هو الطريقة النهائية لتنظيم الذاكرة.

لقد مثَّلت لحظة غزة الفارقة تحوُّلاً في النظرة إلى أفق سياسي ظلَّ لعقود يؤطِّر تخيُّل الفلسطينيين لذواتهم وحدود الفعل الممكن في حدود الإدارة والتفاوض بعيداً عن آليات التحرر والانعتاق. ومن ثنايا هذا الواقع، انطلقت مجلة **الجنوب** بهدف المساهمة في إعادة بناء الذات الفلسطينية في ظلِّ التبعثر المكاني بين غزة والضفة الغربية والقدس وفلسطين المحتلة في العام 1948 والشتات والسجون، محاولة نزع "العصبة"، باستعارة من وليد دقة، "التي تمكِّن الآخر [العدو] من تحقيق سيطرة على الإدراك والبصيرة، التي تستهدف المستقبل بتعطيل الزمن حتى لا يبرح زمانه ولا مكانه"، والخروج بها من موقع التلقِّي إلى موقع الفعل، وتوسيع دوائر التضامن. وبهذا، يبدو أن **الجنوب** قد نجحت، في أعدادها الخمسة الأولى، في رسم مسار يقلب طريقة التفكير في فلسطين من منظور مغاير كما يتمُّ التأسيس له في الافتتاحيات التي يكتبها عبد الرحيم الشيخ، إذ ينطلق من القضايا التاريخية والاجتماعية والسياسية الجامعة. ومن خلال إتاحة المجلة باعتبارها منصَّة للباحثين المهتمِّين بتأصيل الإنتاج المعرفي عن فلسطين ومنها، يجري الاستثمار في تراكم رأس المال المعرفي في مقابل تشتُّت الجهود الفردية بين الذات الباحثة والقارئ الذي يبحث عن مرآة للواقع.

تتميَّز المجلة بغزارة موضوعاتها وتنوُّعها وتعدُّدها، وبرؤية نقدية رصينة، وجهد هائل لإنتاج ذلك كله. **الجنوب** المجلة، بكلِّ ما تقتضيه مجلة دورية من رؤية نافذة وجهد هائل والتزام صارم، وإرادة صلبة، جاءت لتساهم في تقديم معنى مختلف لاقتصاد المعرفة، وتعيد مفهمته. وهي تركِّز في جانب كبير منها على نقد بنية الاستعمار الاستيطاني وتفكيكه من أبعاد مختلفة وتحليل أدواته، وعلى المجال السياسي الفلسطيني الداخلي وقضايا الشأن العام في ظل الأزمات الفلسطينية الراهنة. وبما أن استعادة الفاعلية هي فعل سياسي-اجتماعي، ولتجنب الوقوع في فخِّ إعادة إنتاج المعرفة، فقد يكون من المهم في الأعداد القادمة من هذا المشروع المعرفي توسيع نطاق الانخراط

بقضايا الناس والظواهر الاجتماعية وأشكال حياتهم اليومية وأوجه الحقيقة الغائبة الكثيرة فيها. الأمر الذي قد يتيح الفرصة لرؤية صور وأشكال القوة الفاعلة للمضطَهَدين على الأرض، وكيفية تعاملهم مع التداعيات المباشرة وغير المباشرة للهيمنة الاستعمارية على حياتها وسبل عيشها وتفاعلها مع المآزق اليومية. إن هذا المنظور سيشكِّل مكمِّلاً، لا بديلاً، للمناهج النظرية السياسية النقدية المستخدمة في المجلة. وهنا أعود للاقتباس من مقال خالد عودة الله للتأكيد على أن "من الآثار الجانبية السلبية للتكاثر المحموم لأدبيات نقد الهيمنة وإعادة تدوير وقائعها بمفاهيم مبتكرة [أنها] تعطي إحساساً بالجدَّة والإبداع، وتولِّد الشعور عند القارئ بالانسحاق في نظام الهيمنة الجهنمي، هذا الذي نكتشف كل مرة عمقه واتساعه وتجدَّد قدراته".

وكاستدراك أخير، لا بدَّ من الإشارة إلى إضافة لافتة ومهمة تطمح من خلالها مجلة **الجنوب** إلى تجاوز حدود الجغرافيا الفلسطينية والعربية، إذ كرَّست سلسلة للحوار مع مثقَّفي الجنوب العالمي بوصفه فضاءً لإنتاج المعرفة وإعادة التفكير في علاقات السلطة والهيمنة والتحرر في سياقات استعمارية وما بعد استعمارية تتشابه في المظلومية وتتشارك في المقاومة والتضامن. تتيح هذه المساحة مساءلة أنماط إنتاج المعرفة السائدة، وفتح حوار عابر للحدود حول أسئلة التحرر، والتبعية، والعدالة، وإمكانات بناء معرفة تنطلق من تجارب الجنوب وتحدِّياته. وانطلاقاً من الأهمية الجوهرية لهذا التوجُّه، يتوقع متابع **الجنوب** تفاعلاً أكبر من قبل الباحثين الفلسطينيين في دراساتهم ومقالاتهم، وحتى في سجالاتهم السياسية، مع الإنتاج المعرفي والمنهجي لمفكِّري الجنوب من أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا (والمتواجدين منهم في أوروبا وأمريكا الشمالية وأستراليا...) لما يمتلكونه من موارد فكرية وثقافية مهمة.

يبدو أن قطار **الجنوب** قد غادر المحطة، إلا أن المسار لا يزال طويلاً وشاقّاً، لكنه ممكن عبر إرادة الأمل والعمل